طاغية القرية

بقلم يوسف غصوب

المشهد الرابع

مريم . ليلى . المهاجر

المهاجر مساء الخير .

ليلى اسعد الله مساءك . تفضّل .

المهاجر (يخاطب مريم) ليلة سعيدة ، يا عمتي . اهنا بيت ابي شهيد ؟

مريم نعم ، يا ولدي ، ادخل . ماذا تريد منه ؟

المهاجر (على حدة) لم تعرفني (يخاطب مريم وليلى) لا شيء . انا حامل اليكم تحية من وراء البحار .

ليلى من وراء البحار !

المهاجر نعم . قد وصلت هذا المساء الى بيروت ، قادماً من المكسيك .

مريم تفضل ، يا ولدي ، اجلس . قد تكون تعباً . كأس من الماء ، يا ليلى (تتفرس به)

المهاجر (بعد ان جلس وادار لحاظه في البيت كأنه يتأنس باشياء يعرفها) عرفت هناك في تلك البلاد الشاسعة شاباً يدعى شهيداً .

مريم شهيد ولدي !

ليلى اخي !

المهاجر لا غروَ انه اخوك ايتها الفتاة اللطيفة . فان فيك بعض الشيء من تلاميحه .

ليلى انت صديقه ! . . . يربك خبّرنا عنه . . .

المهاجر هو في الصحة التامة . اشغاله جيدة ، واسمه كالملك . وقد كلفني ان امرّ بكم عند رجوعي الى الوطن واحمل لكم تحيّة .

مريم ولدي شهيد . . .

المهاجر ثم قال لي : اذا وصلت الى بيروت ، فلا تنم هناك . بل اسرع عالًا الى الجبل . وعند صعودك الى قريتك تمرّ في طريقك على قريتي . ففي اول القرية ، على يدك الشمال ، قريباً من غابة الصنوبر ، بيت خليل الهاشم . فادخله تجد امي فتقبلها عني وتقبلك ، ثم تقبل يدها ، وتقول لها : ابنك شهيد لم ينسك ، ولن ينساك . ثم تجد بالقرب منها شقيقة لي ، ولا غرو ان تكون قد اصبحت اليوم صبيةً كبيرة ، فسلم عليها كثيرًا . ثم قبلني وقال : هذه امانة مني فردها لمن اوصيت .

(يقبل يد مريم وينظر الى ليلى)

ليلى (على حدة) ما الطف هذا الفتى وما اقربه الى القلب !

المهاجر وانتِ ، يا ليلى — اظن ان اسمك ليلى فقد قال لي ذلك شهيد — فان ذكرك لا يزال في قلبه وعلى لسانه ، فليلى في جميع احاديثه ، وليلى محور افكاره .

ليلى اشكرك يا سيدي . . . مالك تحوّل وجهك عنا . بالله عليك خبرنا عن شهيد . فانه قد ظلمنا بهجره ، وظلمنا بسكوته . هل هو بصحة جيدة ؟ ألا ينوي العودة الينا ؟

المهاجر شهيد اخوك ملك صغير في تلك البلاد ، اسه اراض واسعة لا تحد ومزارع كثيرة اصغرها كهذه القرية . وله تجارة عظيمة . وهو فضلًا عن ذلك زينة المجالس ، مضرب المثل باللطف واللياقة .

ليلى نعم ! نعم ! حدثنا عنه . . .

المهاجر هو فتى ولا كالفتيان ، مشرق الوجه ، طويل القامة ، يتفجر جبينه ذكاء . ضحوك ، لعوب . انما في ضحكه شيء من الحرقة والمرارة ، وفي صوته حنين دائم الى لبنان .

مريم هل انت صديقه ؟ هل تعرفه من امد بعيد ؟ قل لنا كيف يعيش ؟ كيف يشتغل ؟ بمن يفكر ؟ بماذا يهدس ؟ . . . نحن نسألك كل هذه الاسئلة وقد تكون تعباً جائماً ، فنرجو منك يا سيدي المعذرة . . . الا تأخذ نصيباً من الراحة !

ليلى الامل ان تبيت عندنا الليلة فتحدثنا عن شهيد طويلًا.

المهاجر اشكرك، يا أختي.

ليلى قد اظلم الليل، وانت تعبان. تنام عندنا الليلة، وتذهب غدًا في الصباح.

المهاجر لا بدّ لي من ذلك؟ اذن انام عندكم الليلة!

ليلى فله ما الطفك! قل لي اكان سفرك سعيدًا سهلًا!

المهاجر نعم. قليل من الدوخة في البحر. ولكن السرور بالعودة كان اشد من كل دوخة، فلم افكر بها. كنت كل مدة السفر على ظهر الباخرة انظر في الافق البعيد الى لبنان. ولما اطلت الباخرة على الجبل، وقفت وفتحت صدري وتنشقت ملء رئتي نسيمه العليل، وسال الدمع من عيني. ان هذه الجبال الجرداء لها في القلب محلّ لا يملأ فراغه شيء في العالم. هو فكر كل مهاجر، وقبلة كل غريب، ننام في المهجر فنراه في احلامنا، وننهض ونحن نردد في كل احاديثنا: متى نعود الى لبنان؟

ليلى متى يعود اخي ... (كانها تقول ذلك لنفسها)

المهاجر ولما دخلت الباخرة المرفأ، ونزلنا الى الرصيف، كان اول فكر خطر لي هو المجيء اليكم لتأدية امانتي. فركبت عربة واتيت ... وعندما ارتفعت العربة في الجبل، واخذ الحوذي يغني، وجلاجل الخيل ترنّ في اذني نسيت كل تعب، وكل سفر، ونسيت بلاد العالم، وقلت انا في لبنان، انا في وطني، واخذت انظر الى الاشياء لاتعرّف اليها. فكان بعضها جديدًا لم تره عيني من قبل، وكان بعضها اليف صباي. فنزلت من العربة وقلت للحوذي اذهب. واتيت مشيًا على قدمي، فكنت اقف هنا، واتأمل هناك، وكانت نفسي تتنفس وصدري يتسع. وكان يمرّ بي اناس عرفتهم في صباي، فكانوا ينظرون اليّ ولا يعرفوني ويقولون في نفوسهم: من هذا الغريب؟ وكنت اعرفهم، واضحك في سري، واهمّ ان اهجم عليهم فاعرفهم بنفسي ... وقد عرفت بعض الاشجار فكنت اقبلها في الخفية،

واحدثها ، واسألها عمّا جرى في غيابي . . . وطالت طريقي حتى غابت الشمس ، وطلع القمر ، فجلست على صخرة في الطريق ، ونسيت نفسي هناك . ولما رجع اليَّ روعي اتيت توًّا اليكم .

مريم اهلًا بك ، يا ولدي ، فان ريح ولدي فيك . انت قريب العهد برؤيته ؟ انظر اليَّ علني اراه في ناظريك !

المهاجر (يحول ناره) بربك ، يا عمتي ، هدّئي روعك . واتركيني اتنفس فقد تعبت من صعود هذه الطريق الوعرة

مريم اجلس بحياتي عليك ! اجلس . كم انا طائشة ! خذ راحتك ، يا ولدي

المهاجر اشكرك يا عمتاه ! (يحول وجهه ويمسح عينيه بمنديله)

مريم ماذا ! اتبكي !

المهاجر لا . لا . لا اعلم ماذا دخل في عيني !

ليلى دعني ارى فقد تكون قشة (يحاول نزع القذى بمنديله)

المهاجر لا حاجة لذلك . . . قد انتهى الامر (يحاول الضحك) الحمد لله ! قد راقت عيني . تبًّا لهذه القشة فانها قد أسالت دمعي . . .

ليلى الحمد لله !

المهاجر اجلسا نتحدث فلديَّ اخبار كثيرة اقصّها عليكما .

(يدخل ابو شهيد ويبقى واقفًا وراءهم وهم لا يرونه)

المشهد الخامس

مريم . ليلى . المهاجر . ابو شهيد

ليلى نعم ! نعم ! خبرنا عن شهيد .

المهاجر قلت لك ، يا اخية ، انه في خير وعافية ، ولا ينقصه الا « رؤية وجهكم » ، كما يكتبون في الرسائل .

مريم وانت ، قل لنا من انت .

المهاجر انا الرسول . انا صاحب شهيد . انا رفيقه .

مريم وهل توفقت في سفرك ؟ هل جمعت شيئاً من المال .

المهاجر الحمد لله شيئاً كافياً . ولكن اين ثروتي من ثروة شهيد ؟ فانه في غنى فاحش . المال عنده قناطير مقنطرة . ما انا بالنسبة اليه ؟ لا شيء . ومع هذا فقد احضرت معي لتصفية هذا الصيف في لبنان مالاً كثيراً ! (يرجم محفظته) انظروا هذه اوراق مالية لا تقلّ قيمتها عن الالفين ذهباً . (ينظر ابو شهيد من وراثهم الى المال)

ابو شهيد (يوجّه ليستلفت نظرهم ثم يقول) مساء الخير ، ايها الشاب

المهاجر (بصوت جافّ) اسعد الله مساءك .

ابو شهيد لا شك انك من المهاجرين ؟

المهاجر نعم ، سيدي . ولا غروَ انك ابو شهيد .

ابو شهيد ابو شهيد ؟ نعم انا هو . وانت ؟

المهاجر انا ؟

ليلى هذا صديق شهيد ، يا ابي ، هو قادم الينا من قبله .

ابو شهيد انت صديق شهيد ؟ طيّب ! طيّب ! . . . كيف . . . الا يزال طائشاً . مبذراً . . . في اية حالة هو ؟ . . . لا شك انه في فقر مدقع . وقد يكون ارسلك راجياً ان تتوسّط له للعودة الى هنا ، او لارسال بعض المال ! هذا لا يكون . هذا لا يكون ابداً . ليعلم ان لا صلة بيننا . لا هو ابني ، ولا انا ابوه !

المهاجر طمّن بالك ، يا سيدي . فما هو بحاجة لشيء . هو غني جدًّا جدًّا وفي بحبوحة من العيش . . .

ابو شهيد انا في ريب مما تقول . . . انا أعرف منك بولدي . شهيد عدوّ المال فكيف يجمعه ؟

المهاجر قد صدقت ! هو ، كما تقول ، عدوّ المال . فالمال لا قيمة له عنده . ولكن لا يمنعه ذلك من ان يكون نشيطاً فطناً ذكيا ، وان يجمع مالاً كثيراً ، وان ينفق كثيراً .

ابو شهيد كفى ! كفى ! نحن نعرف ما نقول . هل يتفق الغنى والتبذير ؟ هل يجتمع الماء والنار في اناء واحد ؟ دع عنك هذا . واما انت فيسرني

ان اراك ممسكاً قابضاً يدك.

المهاجر لا . لا . لا تنخدع . انا مثل شهيد ، لست ممسكاً.

ابوشهيد لا حياء في ذلك ، ايها الفتى ، فانا احب البخلاء . المال زينة الرجال . هو سلّم الى كل منزلة عالية ، «هو عصب الحرب» ، لا ادري من قال هذه الجملة ولكنها تعبر بوضوح عن قوة المال.

المهاجر المال زينة الرجال ، ولكن الكرم زينة النفوس.

ابوشهيد أه ! أه ! الاغنياء نفوسهم دائماً مزينة.

المهاجر هم يحسبونها كذلك . ولكن الشعب لا يراها كما تقول

ابوشهيد الشعب يخاف ، ولا يرى ، واذا رأى فانه يرى القوة والبطش يحيطان بالاغنياء ، يرى الحكومة تزدحم على باب الاغنياء ، يرى كل شيء في يد الاغنياء ، يرى العدالة في جانبهم ، فهذه المظاهر هي زينة الاغنياء ، وهي جديرة بان تحمل الناس على البخل حتى يكون لهم مثل هذه المنزلة. ليغضنا الشعب ما شاء فلسنا في حاجة الى محبته ، بل في حاجة الى طاعته ، وهو ابداً طائع . . .

المهاجر ولكنه قد يمل الطاعة.

ابوشهيد أه . أه . ارى انك عشت في بلاد اجنبية ، في بلاد الخطب الرائعة والالفاظ الفارغة : حرية . استقلال . استبداد الخ . انتم معاشر المهاجرين تأتوننا كل يوم ببدعة جديدة . . . انك لا يبعد ان تكلمني عن الاشتراكية . ولكن اعلم ، يا صاح ، ان هذه البذور لا تنبت هنا فالارض صلدة قاسية.

المهاجر لا اكلمك عن الاشتراكية . ولكن اقول لك ان للفقراء نفوساً ، وقد تضجر هذه النفوس من الطاعة العمياء . ان الرجل اذا جاع توحش.

ابوشهيد انت في وهم ، في وهم مظلم ، ان الرجل اذا جاع مات . فان الجوع لا يساعد على البطش ، ان الجوع اول الموت.

المهاجر ولكن الا يخاف الغني خمرة الغنى فانها تسكر . إنها تفقد العقل ، وقد تحمل على الافراط في كل شيء . وقد يتدهور الغني في طلبه الزيادة.

ابوشهيد كن مطمئناً . فالمال درع متينة لا ينفذ فيها شيء حتى ان الكوارث تقف دونها ولا تنفذ اليها

المهاجر ولكنها لا ترد لعنة الفقير المظلوم . . .

مريم ما لنا وهذا الحديث يا خليل !

ابوشهيد طيب . طيب . لا بدّ لك ان تتدخلي في كل شيء .

مريم الا تزال في عراك من اجل المال !

ابوشهيد (للمهاجر) الحق يقال ان للعشرة قوة عظيمة . فان شهيداً قد أثر فيك حتى اصبحت افكارك كافكاره .

المهاجر هذا ما افتخر به .

مريم انه باقٍ عندنا الليلة . فغداً تتحدثان ملياً عن جميع هذه المسائل .

ابوشهيد انت تنام هنا الليلة !

المهاجر اذا شاء سيدي . . . والا فالطريق امامي ، والليل مقمر .

مريم الا تأكل شيئاً قبل النوم .

المهاجر لا ، يا عمتاه ، فلست بحاجة الى شيء . اشكرك شكراً جزيلاً .

مريم اذن تعال ادلّك على غرفتك ، غرفة شهيد . (تدله على الغرفة التي في صدر المسرح)

المهاجر اشكرك ، عمتي .

ليلى قد اتعبناك هذا المساء بسؤالاتنا . فنم هنيئاً وغداً نعيد عليك الكرة .

المهاجر تكرمي ، ايتها الفتاة اللطيفة ، انا طوعك ، فاسألي ما شئت .

مريم اننا نتركك الآن تنام ، لتستريح . البيت بيتك ، تصرف به كما تشاء .

المهاجر اشكر لطفك .

مريم وليلى الى الغد ! الى الغد !

المهاجر الى الغد !

ابوشهيد نم مطمئناً . (يدخل الى الغرفة التي في الجانب الايسر من الدار)

(يخرجون جميعاً الا المهاجر)

(لها صلة)